الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 13) – 1992 – 1413

ارشيو نشريات
جامعة تخصصي دارالحد
٢١٤٣٨

الرافد

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND FAX: 01860 - 20712

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

محنة الأهوار والصمت العربي

○ الدكتور السيد مصطفى جمال الدين

○ تعريف وتحديد

الأهوار: جمع هور وهو: منخفض من الأرض يتجمع فيه الفائض من مياه الأنهار والترع والمبازل مكونة بحيرات مختلفة الأعماق، تتصل فيما بينها بقنوات تسمى في العرف الأهواري بـ (الكَواهين) جميع (كاهن) وهذه الكَواهين هي الممرات المائية التي يتنقل فيها سكان الأهوار بين قراها المختلفة وهي الطريق العام الذي يشد قرى الأهوار بقرى الأرياف المحيطة بها، ثم بالقصبات والمدن الصغيرة التي تزودهم بما يحتاجون إليه من طعام ولباس. وهذه الكَواهين العميقة نسبياً عن قاع الهور، لا ينبت فيها لعمقها شيء من البردي أو القصب، لذلك فهي واضحة المعالم بين الغابات المحيطة بها.

والأهوار في العراق هي التي كانت تسمى قديماً بالبطائح ـ ولعل في تسمية (الحمّار) بناحية البطائح ما يشير إلى ذلك ـ وهذه البطائح هي منبسطات منخفضة قليلاً عن النهر، تبدأ من ملتقى نهري دجلة والفرات في (القرنة) ثم تتصاعد في الفرجة المتسعة بين النهرين حتى تصل أعالي سوق الشيوخ في مجرى الفرات، وأعالي (المجر) وقلعة صالح في مجرى دجلة ولعل مساحتها الكلية أكثر من عشرة آلاف كيلومتر مربع.

وباعتباري واحداً من نابتة القرى المحيطة بتلك الأهوار في سوق الشيوخ، لذلك أزعم اني على معرفة قريبة إلى الدقة بمنشأ هذه الأهوار، وطبيعة تكونها واتساعها، ومعرفة لا بأس بها بالقبائل العربية من سكانها.

فحين أزعم بأن (هور الحمّار) مثلاً هو ما كان يسمى قديماً بالبطائح المحيطة بنهر الفرات والمنخفضة عنه قليلاً حدث لها في بعض الظروف ما زلزل أجراف النهر، فاتسع باتساع البطحاء المحيطة به وكوّن هذا الهور، حين ازعم ذلك فاني أبني هذ الزعم على مشاهداتي في المنطقة، فقد قضيت أكثر غضارة العمر من شبابي في هذه البحيرات الجميلة.

يتكون هور الحمّار من مصدرين أحدهما أساسي وهو نهر الفرات والثاني فرعي وهو نهر دجلة... فنهر الفرات بفروعه الكثيرة المتشعبة التي تبلغ أكثر من عشرين فرعاً لعل أهمها ثلاثة: (السفحة) في ناحية (عكيكة) و(الكَرمة) و(أم نخلة) في ناحية (كرمة بني سعيد)، حين تصل هذه الفروع إلى ناحية (الطار) وهي مدخل الهور تذوب جميعاً في الحمّار... أما فرع دجلة (الفرّاف) فهو بعد أن يتفرع منها في الكرت، لإرواء أراضي (العي) و(تلعة سكر) و(الرفاعي) و(الشطرة) تنتهي (بزايزه) بناحية (الفهود) التابعة لقضاء (الچبايش) فيذوب أيضاً في هور الحمّار، لأن الفهود تقع في بدايات الجانب الشمالي لهذا الهور، ويكوّن الماءان ـ دجلة والفرات ـ سيلاً واحداً يتسع باتساع حوض الهور.

والماء في تلك المنطقة من (هور الحمّار) ليس راكداً، شأن البحيرات الأخرى ـ كما يتصور البعض ـ بل هو جار ابتداء من قرية الفهود شمال البحيرة، وقرية (آل اسماعيل) جنوبها، حتى يصل إلى قضاء الچبايش، أي في مساحة طولية تتجاوز ٥٠ كيلومتراً تقريباً، فإذا وصلت هذه البحيرة الجارية (ناحية المدينة) تضايقت قليلاً قليلاً، حتى كوّنت نهر الفرات من جديد، بأجرافه الواضحة وشطآنه اليابسة، حتى إذا التقى بنهر دجلة، في قضاء (القرنة) انبثق منهما معاً ما يسمى في محافظة البصرة بـ (شط العرب).

فهور الحمّار إذن، أو برقة الحمّار ـ كما تسمى محلياً ـ ولعل هذه التسمية (برقة الحمّار) جاءت من البريق، لأنها على سعتها لا نبت فيها فيشتد بريق الشمس على أمواجها، وعدم وجود النبت راجع إلى عمقها، ولانها طريق السفن

والبواخر الصغيرة الصاعدة من البصرة إلى الناصرية، وقد سلك الانكليز (١٩١٥ م) ببواخرهم الحربية، بعد موقعة (الشعيبة) هذا المجرى حتى إذا دخلت سفنهم مجرى السفحة كانت معركة السفحة المعروفة بين عشائر سوق الشيوخ وبين الانكليز. وقد دخلت هذه التسمية (برقة الحمّار) شعرنا العربي الحديث، واظنكم تتذكرون رائعة المرحوم علي الشرقي (أحلام الخَضَر) التي يقول فيها:

أكـــل هـــذا البـــذخ يـــا بغـــدادنـــا مـــن بـــرقـــة الحمّـــار أو جـــرف الصخـــر

أقول: فهور الحمّار إذن متسع من الأرض المنبسطة تحيط بنهر الفرات أساساً وببزايز الفرع الثاني من دجلة.

وهذا الهور يشكل مساحة كبيرة من محافظة الناصرية، بطول أكثر من ٥٠ كيلومتر، وعرض أكثر من ٢٠، ولكننا إذا أضفنا إلى هذا العرض مساحة (هور السناف) المحادد لسكة القطار، يكون عرضهما مساوياً لطولهما، أي أن المساحة التقريبية لهور الحمّار تبلغ ٢٥٠٠ كيلومتر مربع، تحيط بهذا الهور أراضٍ صحراوية وزراعية تسمى (بالشامية) و(الجزيرة)، وفي جانب الشامية تقع السكة الحديدية الموصلة بين بغداد والبصرة، ونبدأ مع الهور من سوق الشيوخ غرباً، وتنتهي بالشعيبة شرقاً، وليس في الشامية زراعة ولا قبائل ريفية مستقرة السكنى، بل أكثر سكانها من القبائل الرحّل التي تمتهن تربية الأغنام والإبل ويصطلح على أهل الغنم بـ (العرب)، وأهل الإبل بـ (البدو)، وهي تنتقل عادة، حسب المراعي بين العراق والسعودية والكويت.

أما جانب الجزيرة فهو أراض زراعية تكثر فيها زراعة الحنطة والشعير، في الأراضي البعيدة عن الهور نسبياً، كأراضي (البو صالح) و(آل نصر الله) حتى تصل إلى (الصيكَل) وأراضي (آل عيسى) في محافظة ميسان، أما القبائل التي تسكن على الضفاف الشمالية من بحيرة الحمّار، فتعيش عادة على زراعة النخيل والحنطة، في الأراضي المرتفعة خلف البيوت، وزراعة (الشلب) الرز في الأراضي المنخفضة التي هي جزء من هور الحمّار. وفي وسط هذا الهور يمتد لسان طويل هو مرتفع من الأرض لا تغمره مياه الهور عادة، بترواح عرض هذا اللسان بين الثلاثة والأربع كيلومترات، ولكنه بطول أكثر من عشرين كيلومتراً، وتسكنه قبائل عربية ثابتة السكنى، تمتهن زراعة النخيل قليلاً، والشلب كثيراً، وفيهم عشائر (آل اسماعيل) و(آل بوعبد علي) و(بني مُشرف) و(عبادة) و(آل بوحمدان)، يقابلهم في جانب الجزيرة مرتفع آخر، يمتد أكثر من صاحبه، وتسكنه قبائل ثابتة السكنى أيضاً هي: (آل حَوَل) و(العمايرة) من خيكَان، و(آل بوشامة) و(بني حطيط) من وائل، و(آل غريج) من خزاعة، و(المواجد) و(الحدادين) و(آل عنيسي) و(آل خيون) من بني أسد.

وأنا استغرب كثيراً ممن يقدر سكان الأهوار، بخمسين أو مائة ألف نسمة، فالمعروف أن بعض هذه القبائل يتجاوز هذين الرقمين، وهناك (هوسة) معروفة تقول: (لو ضاع أصلك كَول أعبادي) كناية عن سعة أفراد قبيلة (عبادة).

وفي ظني أن سكان أهوار محافظة الناصرية، وحدها لو قدر عددهم بأضعاف هذا الرقم لكان التقدير صحيحاً لأن [illegible] بهور الحمّار، أو هور (الشويجة) - شمال شرق الناصرية - والتي تعيش عادة على خيرات هذه الأهوار، ابتداء من صيد السمك والطيور المهاجرة وانتهاء بتضنيع البردي والقصب، وما بينهما من زراعة الرز وتربية الحيوانات المائية بما تنتجه من خيرات الزبد واللبن، هذه العشائر تكون في أعدادها ثلث سكان المحافظة تقريباً، فليس الأمر مقصوراً على سكان أضفاف الهور ممن نسميهم بـ (المعدان) الذين لا عمل لهم يعتاشون منه، غير تربية الجاموس واستغلال ضروعها، ولو اقتصر الأمر في سكان الأهوار على هؤلاء المعدان وحدهم، لكان للتقدير المذكور وجهه المقبول.

على أن هؤلاء (المعدان) يشبهون من بعض الوجوه اخوانهم ممن نسميهم بـ (العرب) و(البدو) سكان البادية الرحل ممن يعتمدون على تربية الأغنام والإبل، فليس لهؤلاء المعدان مساكن ثابتة في الأهوار، لأنهم لا تربطهم بالتربة أراض زراعية يعيشون منها، فأراضيهم الزراعية هي ضروع جواميسهم التي يتنقلون معها، حسب المراعي التي يكثر فيها النبت الصغير من القصب الذي يسمونه بـ (العُنكَر) وهذا النبت له زمن محدد، فهو ما زال صغيراً كان مرعى للجاموس، فإذا طال

وصار قصباً، لم يقبل عليه هذا الحيوان، فيضطرون للانتقال من واحة الى اخرى حسب توافر هذا العنكَر في الأهوار المختلفة.

وقد سهل الله لهؤلاء المعدان الرحل تلالاً ومرتفعات متباعدة في أعماق الهور، يسمونها (إشانات) جمع (إشان) تكون محلات موقتة لسكناهم (وكلمة إشان ـ كما حدثني العارفون ـ كلمة سومرية تعني التل)، أما مساكنهم، وأثاثهم، ووسائط نقلهم، فهي من البساطة بحيث لا تتعارض مع هذا الترحل.

على انه يغلب على الرحل من هؤلاء المعدان استعمال ما يسمى بـ (الدبون) جمع (دِبن) وهو جزيرة صغيرة طافية على الماء بمقدار البيت مصنوعة من القصب والبردي المشدود بإحكام وهي تشبه ما يسمى في دجلة بـ (الكلك) إلا ان الكلك مجموعة من الجذوع أو قطع الخشب المشدود إلى بعضه أما الدبون فهي من القصب، وهذا القصب، وهو مادة أكواخهم ودبونهم، متوفر معهم أينما ساروا، ولكل عائلة منهم (كعدٌ) وافٍ يستطيع ان يحمل كل ما لديهم من أثاث بسيط ومؤنة قليلة، لذلك فهم يتنقلون مجموعات مجموعات، من إشان إلى إشان وان كان أكثرهم يستعمل تلك (الدبون) الطافية التي يستطيعون دفعها كالسفينة من مكان إلى مكان.

وهذه الإشانات ـ كما يبدو لي ـ لأني وقفت على بعضها، بقايا قصور قديمة، أو بيوت متقاربة، لعلها كانت (آثاراً سومرية) في هذه البطحاء قبل أن تغمرها مياه الفرات، وقد تهدمت، وترسبت عليها مع الفيضانات المتتالية، ما جاء به الفرات من غرين وطين، وما تجمع عليها من البردي، والبردي ـ كما قد لا تعلمون ـ يستحيل طيناً حين يفتلع ويبقى طافياً في الماء.

وقد وقفت على بعض هذه (الإشانات) في (هور السناف) جنوب هور الحمّار فوجدت فيها آثار حفريات وبقايا صخر وطابوق، ويحدثنا كبار السن. ان بعض أبناء العشائر الذين يذهبون في رحلات صيد طويلة، وجدوا في هذه الإشانات بعض التماثيل وبعض الأواني الخزفية، وما أدري إذا كانت هذه الحفريات هي من صنع هؤلاء الصيادين، أم علماء آثار لا نعرفهم.

خلاصة الأمر أن سكان الأهوار، والمتضررين من جفافها، ليس هم المعدان وحدهم، بل القبائل العربية التي تعيش من الزراعة والصيد، وتصنيع القصب والبردي، ومن تربية الحيوانات المائية، وإذا قدرنا هؤلاء في محافظة الناصرية وحدها بأربعمائة ألف، فلكم ان تقدروا سكان الأهوار في ثلاث محافظات هي الناصرية، والبصرة، والعمارة.

أما عن أصول سكان الأهوار ـ بما فيهم المعدان ـ فهم قبائل عربية صريحة الانتماء إلى تميم، ومالك، وخزاعة، وأسد، وقيس، وغيرها من قبائل العرب المعروفة. أما ما يدعيه بعض المستشرقين من أمثال (الفريد ڤسجر) في كتابه (عرب الأهوار) من انهم ليسوا عرباً، وإنما هم من بقايا السومريين الذين لاذوا إلى مناطق الأهوار، هرباً من بطش القبائل العربية القادمة من جزيرة العرب، فهو يشبه في خرافته، ما كتبه رأس النظام في جريدة الثورة ـ البغدادية ـ على أثر الانتفاضة التي هزت عرشه، من أن سكان الأهوار الشيعة فلاحون من الهند جاء بهم محمد بن القاسم الثقفي بعد عودته من فتح الهند، مع الجاموس الذي استورده من هناك.

وما أدري إذا كان بعضكم يتذكر الأبيات التي تعرضت فيها ـ بقصيدتي عن (يقظان) ـ إلى هذه المفارقة العجيبة التي جاءت بقبائل بني تميم من الهند. وجاءت بتركمان (السنجق) من مكة المكرمة، على غرار مفارقة النسب الصريح لرأس الطاغوت الأموي إلى الإمام علي عليه السلام!! ولعل الصورة كانت بحاجة لأن يُنسب الأشراف العلويون في الهور إلى أسرة (الدلاي لاما) في (التبت).

ولعل قراءة ذلك المقطع من القصيدة يذكرنا بكاريكاتير الأحزان في سياسة حكام العراق قلت لـ (يقظان):

يـا وليـد الصحـراء ذكـر بنـي قـومـك ان العـــراق كـــان وكـــانـــوا

وسيبقى غير الفراتين لم يصنع (عراقاً) وليخسىء النكران
كيف غالوا دم (الشعيبة) و(العشـ ـرين) و(الكوت) واستباحوا وخانوا
كيف تظما بنت الرميثة في (نجـ ـد) وتسقى فراتها الذؤبان!!
كيف جاءت (بنو تميم) من (الهند) وهلت من (مكة) التركمان؟!
كيف ينمى إلى (علي) فتىً يأ باه من لؤم عنصر (مروان)!!
وليقل ما يريد ولينشر الاعـ ـلام ما شاء بثه السلطان
فسيأتي يوم به ينطق الحق بليغاً، ويخرس الخيزران
وستنشق عن بنيها بطون الـ أرض والفادرون كانوا فبانوا
وبسوق الشيوخ لا رمل (رفحا) من جديد سيولد (اليقظان)

○ لماذا التجفيف وما هو الأسلوب الذي اتبعه النظام في ذلك

لعل هذه الصورة الواضحة عن جغرافية الأهوار ـ مساحة وموارد وسكاناً ـ كانت بحاجة إلى رسم الخطة التي بذل النظام جهده لتجفيفها، ثم عن علاقة هذه الخطة بما طبلت له أجهزة النظام من فكرة (النهر الثالث) وهو عمل قديم من أعمال مجلس الأعمار في العهد الملكي لا علاقة له مطلقاً بعمليات التجفيف!!.

فالهور كما عرفناه منخفض من الأرض يصب فيه فائض النهرين، ومبازل البساتين والمزارع المحيطة به، المياه الوافدة إلى هذا المنخفض، وحينئذ يصبح الهور وادياً فارغاً من سائر أودية العراق المهملة، ولكن المشكلة والمأساة الحقيقية هي في الطريقة البدائية الحاقدة التي استعملها هذا النظام في كيفية سد هذه المصادر، دون أن يعبأ بحياة المواطنين ومصادر عيشهم.

وأنا هنا لا أتحدث عن أهوار العمارة والبصرة، لعدم اطلاعي الواسع عليها، وأظن ان اطلاعي على أهوار سوق الشيوخ ووسائل تجفيفها، كفيل برسم الصورة لبقية الأهوار.

فمصادر مياه هور الحمّار ـ كما عرفتهم ـ تأتي من دجلة فرع الغراف، ومن الفرات بفروعه المختلفة، وجميع هذه الفروع والأنهر تذوب في مجمع (الحمّار)، وطبيعي ان أية دراسة متأنية لخبراء فنيين من مهندسي الري والزراعة لا يمكنها ان تقدم على هذه الخطوة، وبهذه السهولة التي عالج فيها النظام مسألة التجفيف، وذلك لكثرة اللوازم الباطلة، والأضرار الفادحة، التي تنشأ من هذا التجفيف، سواء في عملية الري، أو عملية البزل، ولكن النظام الذي حصر كل همه، طيلة عمره المديد، في بقاء الكرسي الذي يتربع عليه رأس النظام، مثل هذا النظام عادة، لا يفكر بمصالح الشعب زراعية كانت أو صناعية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، فكل ما يهمه من القضية هو جانبها الأمني، فقد كانت الأهوار، منذ القديم، ملجأ لكل المتمردين، على كل الأنظمة، وفي عصر صدام حسين كانت الأهوار أكثر أماناً لرؤلاء المتمردين ابتداء من الكفاح المسلح في السبعينات، وانتهاء بأبطال الانتفاضة الشعبانية في التسعينات، وقد اتخذ هؤلاء الأبطال من ملاجئهم في الأهوار، منطلقاً لاستمرارية الانتفاضة، وزعزعة هيبة النظام في المحافظات الجنوبية... وهذا هو الشيء الوحيد الذي يقلق رأس النظام.

أما قصة النهر الثالث، واستصلاح الأراضي الزراعية، التي تكتب عنها بعض الأقلام التي جفت ضمائرها قبل أن يجف حبرها، فهي قصة خرافية اعلامية، لا واقع لها مطلقاً، أو لا صلة بينها وبين عملية التجفيف، فلبست العملية أكثر من تغيير مجرى نهر الفرات، قبل دخوله سوق الشيوخ أي قبل تفرع الفروع العشرين منه لإرواء ملايين الدونمات التي تحد العراق بالتمر والرز والحاصلات الأخرى، وقام النظام بشق قناة موازية لسكة الحديد، في جانب الشامية، تبدأ من (الفضلية) ـ قبل سوق الشيوخ ـ وتنتهي بعد (الشعيبة) لتصب في (شط البصرة) الذي أحدثته المواني العراقية، بين

البصرة والزبير، ليصب في (خور عبد الله) ومن ثم في ميناء (أم قصر) وبذلك تستغني الموانيء العراقية عن شط العرب، الذي تقاسمه النظام مع شاه ايران، بعد ضغط الشاه عليه.

وفي هذه الحالة فان النهرين لا يلتقيان في (القرنة) كما كانا من قبل، بل يبقى مصب دجلة في شط العرب، ومصب الفرات في شط البصرة.

وقام النظام بتعلية سدة ترابية. على الجانب الشمالي لهذه القناة مما يلي الهور، ونصب مضخات هائلة على الأماكن العميقة، لسحب مياه الأهوار المتجمعة فيها، واعادتها إلى القناة.

وقد صنع في دجلة على الجانب الجنوبي من العمارة، نفس القناة لتجميع مياه فروع دجلة فيها ثم أوصل هذه القناة من قلعة صالح إلى القرنة، لتعود بعد ذلك إلى دجلة فشط العرب، وجعل في جنوب هذه القناة سداً ترابياً يمنع من وصول أية قطرة ماء تتسرب إلى الأهوار.

هذه هي العملية باختصار، وهذا هو الهدف منها بوضوح، ليس زراعياً، ولا صناعياً، ولكنه أمني بحت!!

والعجب أن بعض الأقلام التي لا تعرف شيئاً عن طبيعة الأهوار، تعكس هذا الأمر تماماً، فتجعل هذا العمل الأمني الحاقد مشروعاً لإنعاش الزراعة في العراق، وتربطه بالنهر الثالث، بين دجلة والفرات، الذي بدأ العمل به في العهد الملكي ووقف قبل الناصرية ثم انشغلت الأنظمة المتعاقبة بنفسها عنه طيلة السنوات الخمس والثلاثين الماضية.

أما هذا العمل الأمني الصرف، فليس فيه أكثر من تهجير مليون عراقي، كانوا يعيشون على الزراعة والصيد، وصناعة الحصر والبواري مئات السنين وتعطيل معامل الورق والسكر التي أنشئت لتزود أسواق العراق من قصب هذه الأهوار وبرديها!!

ولعل بعضكم قد شاهد ـ وهو في القطار النازل ـ أرتال الشاحنات في ساحل الهور الممتد من (أرطاوي إلى الشعيبة) وهي تنتظر سفن الصيادين القادمة من هور السناف لتملأ أسواق العراق، بأسماك الأهوار وطيوره الموسمية المهاجرة (الخضيري) وما أدري إذا كانت هذه الأفلام والتقارير التي تعرض باستمرار، في تلفازات الغرب وإذاعاته لا تصحح أفكار هؤلاء الكتّاب التافهين.

○ الموقف الدولي من مأساة الأهوار

أظن أن القضية العراقية ليست هي مأساة تجفيف الأهوار، وتغيير طبيعتها، وتهجير أهلها الى الحدود الإيرانية، أو الى إيران نفسها، فهذه واحدة من مآسينا الكثيرة، وإن كانت هي الأحدث عهداً، ومن ثَمّ فهي أشد إيلاماً.

وأعتقد أننا لا نملك لها ـ ولا لغيرها ـ في الوقت الحاضر، أي حل ناجع. فالقضية فيما يبدو لكثير من المراقبين ـ تتلخص في أن هذه المناطق المتاخمة لإيران ـ والمظللة بغيابات كثيفة من القصب والبردي، وبطرق آسنة ومتعددة مما سميناه بـ (الكراهين) ـ تجعل الخطوط سالكة بين الجمهورية الاسلامية وبين الثوار في الأهوار، مما ينعش ما يسمى بـ (الحركة الأصولية) التي يحاربها النظام العالمي الجديد بكل طاقاته، وبمختلف حلفائه حتى العرب المسلمين.

إن هذا التجفيف ـ وإن كان المنفذ الفعلي له هو النظام الدكتاتوري في العراق ـ إلا أنه لاقى هوى وتأييداً مطلقاً ممن بيدهم القدرة على إعاقته بطائرة واحدة ـ من هذه الطائرات التي تقصف العراق بين حين وآخر ـ لتنسف كل السدود الترابية، وتعيد الأشياء الى طبيعتها، في أقل من ساعة، والمظنون أن قصف السدود، بحجة وجود قواعد مضادة لطائراتهم، لا تكلفهم واحداً بالألف، من الضجة التي أحدثها قصف مركز المخابرات العراقية، وهو في حي مدني مكتظ بساكنيه، ولا واحداً بالمليون من خسائر الجنود الأمريكان، وهم يطاردون (عيديد) ونظامه في أحراج الصومال، ولكنهم سكتوا عن هذه المأساة البشرية المروعة، واكتفوا بعرض (الأفلام) والتقارير الإخبارية التي تنطي هذا الواقع الحزين!!

وبذلك يحققون هدفين مهمين لم يبذلوا فيهما جهداً:

١ ـ إن هذا التجفيف ـ بما يرافقه من حرائق الغابات ـ يثبّت وجود القوات العراقية في اليابسة، فيحقق ذلك لهم قطع الصلة بين مراكز الأصولية ومنابعها في إيران، وبين فروعها القائمة والمرتقبة في العراق، ومن ثم يحقق لهم تحجيم طموحات (الثورة الإسلامية) من جهة، والاطمئنان ـ من جهة أخرى ـ على سلامة النظام المرتقب الذي يخططه هذا النظام العالمي الجديد للعراق ولثرواته النفطية.

٢ ـ إن الحملة الاعلامية في التلفاز والإذاعة تشوه وجه النظام القائم الذي هم بصدد تحجيمه وإضعافة وإذلاله من جهة، ويرضي، من الجهة الأخرى، طموحات من يحسن الظن بهم، ويلقي كلّ بيضه بسلتهم، من أطراف المعارضة العراقية.

○ الأمة العربية ومأساة عرب الأهوار

أما الموقف العربي من مأساة إخوتهم في العروبة، فشيء يحتاج الى كثير من التبصر، وقليل بل كثير أيضاً من الصراحة، وأنا باعتباري شاعراً، لا سياسياً، والشاعر ـ كما تعلمون ـ أوتاره الصوتية مشدودة بنياط قلبه، أكثر من شدها بتلافيف عقله، وإذا أردنا أن نتحدث عن مأساة الأهوار، بهذه النياط الصوتية، فيجب ألا نعزلها عن مآسينا الأخرى، وعن موقف الأمة العربية منها.

كنا نعتقد، منذ القديم ـ ولعل هذا الاعتقاد كان صحيحاً ـ أن الشيعة في العراق ـ وهم الغالبية من هذا الشعب المستهدف بنيران حكامه ـ هم عرب، لهم ما للعرب الآخرين، ونحن نظن أننا (أمة عربية واحدة) وبعضنا يظن أنها (ذات رسالة خالدة!!)، وعملنا على هذا المعتقد من حين فقهنا السياسة، لا فرق بين من ينتجه منا الى الاسلام ديناً ودولة، وبين من يكتفي بالعلمانية نظاماً ومعتقداً، وحملنا (قضايا) أمتنا العربية بقلوبنا وأكفنا، من (طويلات العمر) كالقضية الفلسطينية المعمّرة، الى متوسطات السن، كالجزائرية والتونسية، الى صباياها الصغار حتى (السقط) الذي لم يبلغ عمره سبعة أشهر، كالقضية الكويتية!!

وكنا نظن أن ما يؤلمنا نحن ـ عرب العراق ـ يؤلم إخوتنا في المصير والأهداف، فإذا بنا بعد سنين من النضال المر ضد المستعمر وأدواته المحلية، لا نجد من يعطف على قضيتنا العراقية، لا من الأنظمة التي تحارب الآن رأس النظام بكل جهدها وطاقاتها، ولا من الشعوب العربية التي شاركناها كل آلامها وآمالها. حتى لقد أصبح غريباً جداً أن نقرأ بياناً لتنظيم اسلامي أو عربي، أو مقالاً لكاتب، أو قصيدة لشاعر، نحس منه بعض العطف على هذا الشعب المسحوق بأقدام جيشه العربي، مَن مِن هذه الأمة العربية تذكر علماء المسلمين الذين قتلوا منا بالمئات، أو مناضلينا الذين أعدموا بمئات الألوف، أو شعبنا الذي سحق بالدبابات والأسلحة الفتاكة حتى المحرمة دولياً، بل إن بعض زعمائنا العرب!! يطلب في واشنطن الإبقاء على النظام العراقي بحجة أن في زواله تقسيم العراق!! وهو يرى، بأم عينه، أن بقاءه هو الذي قسم العراق، لماذا؟ لأن هذا الزعيم العربي!! بينه وبين إيران الشيعية حساسيات لا يجد بأساً أن يعكسها على عرب الشيعة في العراق!!

مَن مِن هذه الأمة مَن استنكر اهدار شعائرنا الدينية، وهدم عتباتنا المقدسة، ودرر عبادتنا الشريفة؟! في الوقت الذي نرى فيه مسجداً صغيراً في أقاصي بلاد الهند أقام الأمة العربية وأقعدها، ومسجد الإمام علي ومرقده، وهو العربي الصميم، ورابع خلفاء المسلمين، يقصف بالصواريخ ويسحق بالدبابات، ولم أسمع ـ في حدود علمي ـ من هذه الأمة العربية المسلمة، شعوباً وحكومات، من استنكر ذلك!!

وإذا حَدَّثنا ـ يا إخوتنا في العروبة ـ بعض المغرضين المتربصين، بأن السبب في هذا الصمت العربي المطبق هو أن الدبابات التي احتلت المراقد المقدسة كانت تحمل شعار (لا شيعة بعد اليوم)، لم نجد ما نرد به كيده ونخرس به لسانه، على قوة بلاغتنا العربية!!

كذبوا هؤلاء المغرضين الكائدين ببيان واحد، بقصيدة واحدة، بخبر يُنشر في تلفازاتكم الناطقة ـ مع شديد الأسف ـ بلغة العرب، لعل هذا الخبر أو تلك القصيدة تبدد صمتكم المتعمد عن مأساة شعب يُقتل ويهجر بالملايين، وتصادر أمواله وجنسياته وتغير طبيعة سكناه، وتسحق كراماته ودينه بأحذية جنود هم ـ مع الاعتذار ـ من هذه الأمة العربية.

لتردّوا ـ يا إخوتنا في العروبة ـ دَيْنَ الدماء التي ضمخت هضاب يافا وحطين، والأموال التي أنعشت جهاد جبهات التحرير في الجزائر وتونس، وفلسطين، وفتاوى علمائنا الأبرار التي ساندت ظهر عمر المختار في ليبيا، وعبْد الكريم الخطابي في ريف المغرب.

نحن لا نريد منكم ـ يا إخوتنا ـ دماءً تجري في أهوار (سوق الشيوخ) أو (أم النعاج)، ولا أموالاً نعيد بها بناء عتباتنا المقدسة في النجف وكربلاء، ولا أسلحة ندافع بها عن كراماتنا المهدورة في سهول العراق وهضابه، وإن كنتم ـ والحق يقال ـ أنفقتم الأموال الطائلة، واستوردتم الأسلحة الفتاكة، وبذلتم الدماء الغزيرة، في بلد اسلامي غير عربي، حتى أصبحت تقليعة (الأفغان العرب) من أطرف ما تضج به صحف الغرب والشرق!!

نحن نريد فقط أن تشعرونا أنا عرب مثلكم، وأن دماءنا التي تسيل في أهوار العراق وسهوله، هي من نفس الشرايين التي أمدتكم بدماء قيس، وتميم، وأسد، وعامر، لا تجعلوا من عقيدتنا في مذهب أهل البيت حائلاً أو (إكسيراً) يحيل دماءنا العربية ماءً، فنحن لم نجعل من مذاهبكم سداً يمنع عروقنا أن تروي عطش البيارات في القدس وبيت لحم، ولا غصة في لهات الشيبي، أو الجواهري، أو عبد المحسن الكاظمي، تمنع هدير الشعر أن يتغنى بأمجاد ميسلون، أو بور سعيد أو طرابلس الغرب.

لِمَ هذا الإصرار ـ يا إخوتنا في العروبة ـ على دفع خمس وعشرين مليون ثائر عربي، الى أحضان غير العرب!! وأنتم تشاهدون بأعينكم ـ إن كانت تبصر ـ أنه لم يثبت في وجه أعداء العروبة، وفي هذا الزمن العربي الرديء، غير الشباب الشيعي الصامد في هضاب لبنان، والمحترق في أهوار العراق، والمدافع عن وطنه، يوم هرب حكامه، في سهول الكويت.

ثم لماذا هذا الجهل حتى من مثقفي العرب، بتاريخ عروبتهم وجغرافيتها، فتنسب مراكز دراساتهم العربية التشيع الى القومية الفارسية!! أتجهلون، واقعاً، أن التشيع عربي المولد، والنشأة والامتداد، وأنه ولد في المدينة، وترعرع في الكوفة، وامتدت جذوره على مساحة الدماء العربية في الأحساء والبحرين، وعُمان، وبلاد الشام، ولم يصل هذا المد الشيعي إيران إلا بعد ألف سنة من انتشاره العربي.

يوم كان (المزيديون) في الحلة، و(الحمدانيون) في الموصل وحلب، و(الفاطميون) في مصر والمغرب، و(العلويون) في فلسطين، و(الزيديون) في اليمن، لم تكن بلاد فارس تعرف شيئاً عن هذا التشيع!!

أتظنون أن النجف ـ وهي الامتداد الطبيعي للكوفة ـ أخذت تشيعها عن فارس الشافعية!!، وأن هضاب عامل وبعلبك، منفى أبي ذر الغفاري، أخذت حب علي والحسين عن اصفهان الأمرية!!

أعيدوا قراءة تاريخكم من جديد لتعلموا أن الدكتور نور الصحيح، ذ(الحمدانيون) في فارس أشادوا تشيعهم من العلامة الحلي في العراق، والصفويون في أصفهان تعلموا حب أهل البيت من المحقق الكركي في لبنان!!

أليس من سخرية القدر أن تعلمنا عروبتنا أقلامٌ عروبتها من قوارير!!

من هما طارق عزيز وخير الدين حسيب ليشككا في عروبة الشيعة في العراق؟! ألم يكن المتنبي على حق حين قال:

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحكٌ كالبكا

بها نبطيٌ من أهل السواد ... يدرّس أنساب أهل الفلا

أعيدوا النظر ـ يا إخوتنا في العروبة ـ في مواقفكم من شيعة العراق، ارفعوا هذه المظلة العربية عن نظام صدام

واحتضنوا هذا التشيع العربي الثائر، ولا تجعلوا من حسّكم المذهبي ثمناً لبيع دمائكم وأعراقكم لقوم آخرين!!

وإذا صدّر لكم حكام العراق تبريراتهم لاضطهاد شعبهم الشيعي واتهامهم بالفارسية، فليس ذلك لأنهم عرب، وإن زوّر صدام حسين (شجرة نسبه)، ولا لأنهم يعتنقون المذهب الحنفي، فهم يعلمون ـ وأنتم تعلمون أيضاً ـ أن ضفتي دجلتهم، برصافتها وكرخها، تحتضن قبرين لإمامي المذهبين، ونحن من جانبنا لا نجد ضيراً في أن يكون إمام الحكام ـ رحمه الله ـ من فارس، وإمام المحكومين من قريش!!

لقد امتزج الاسلام بالعروبة امتزاج الروح بالجسد، وانتشر التشيع من جزيرة العرب انتشار المذاهب الاسلامية الأخرى، فكان عدد الشيعة في الهند وباكستان أكثر من عددهم في إيران، فلماذا الإصرار على ربط المذهب الشيعي بالقومية الفارسية؟!

وبعد لقد تحدثت لكم ـ وأنا أقلب محنتنا في العراق ومصير أمتنا العربية فيه ـ بكل ما منحني عقلي من معرفة، فلأختم لكم هذا الحديث المحزن بكل ما منحني قلبي من حب العروبة.

لقد سبق لي ـ في غير هذه القاعة ـ أن تحدثت مع أمتنا العربية عن هذه المحنة بقصيدة قلت فيها:

عودي لأمسكِ ينطلقْ منك الغد ... ما عاش في دمك النبي محمد
وتمددي طرقاً فلا توهي السرى ... سعة (المذاهب) والمدى متوحد
فالرأي تصقله العقول تخالفت ... نظراً، وقد يصديه عقل مفرد
والخوف ليس بأن نكون (منائراً) ... شتى، تضيء لنا الطريق وترشد
الخوف أن يُبنى (فريق مسلم) ... بحطام آخر، مثله يتبدد!!
والخوف من لقيا عدوك شاهراً ... لأخيك صارم حقده، فتمجد
والخوف أن (العنصرية) هوّمت ... زمناً فأيقظها الدم المستورد
والخوف أن (الطائفية) تبتني ... أعشاشها بين العقول فتحمد
ونطير أسراباً نرفرف حولها ... ونعبّ فضل دمائنا ونغرد
يا قوم حبكم التفرق في المدى ... فالليل طاغ والضياع معربد
والطائفية ـ وهي أسوأ ما سعى ... أعداؤكم فيه ـ تصان وتعضد
ويكاد (رمز الطائفية) ـ وهو من ... تدرون بغضاً للتدين ـ يعبد
ما انفك يلمز من ذرى أحسابنا ... حنقاً فيحجمنا لكم أو يهند!!
نحسن العراق شعوخه وإباؤه ... وكسيرهم ما أعطى بنوه وأنجدوا
عرب تكاد عروقنا ممسا بها ... من (دارم) و(مجاشع) تتفصد
وجرى بنا الإسلام سيل حضارة ... وتمدن، يرضى هداه ويزبد
وامتد وهج (القادسية) من دما ... آبائنا حتى (الشيبة) يشهد
أتكرن محنتنا لأن قلوبنا ... من نبع آل محمد تتزود؟!
ويكون عذر بني أبينا أنهم ... خدعوا ببارق ما يقول فأرعدوا
هبكم صدقتم ما تنطع فيه من ... حرق اليهود منافق متهود
أفتسكتون وقد أحال خرائباً ... مثوى الأئمة جيشه المتأسد
حتى كأن بكربلاء (حائط المبكى) ... وفي النجف (الكنيست) يُعقد!!

○ محاضرة القيت في مركز أهل البيت الإسلامي في لندن بتاريخ ٢٢/٨/١٩٩٣